

في الورب المقارنه

الذاتي والموضوعي

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

تأثر النفس الانسانية بكل ما تحس من مظاهر الحياة، فإذا ما عبر المرء عن تأثره ذلك ثراً أو نظماً في لفظ نقي، كان تعبيره ذلك أدباً، فالأدب نتاج عاملين: مؤثر هو مظاهر الحياة التي تحفز الأديب إلى الانشاء، وتتخذها موضوعاً لانشائه، ومتأثر هو ذات الأديب التي يترجم القول المنظوم أو المنشور عن خواجها، وليس يخلو عمل أدبي من آثار هذين العاملين مترجين، فكل عمل أدبي هو ذاتي وهو موضوعي، غير أن الأعمال الأدبية تتفاوت حظاً من هذا ونصيباً من ذلك، فإذا استرسل الأديب في وصف ما هو بإزائه من مظاهر الحياة وشرح أحوالها على علانها، مكفكفاً من عنان عواطفه بحكا دونها الفكر، كان العمل الأدبي موضوعياً، وإن أرخى الأديب العنان لعواطفه ملأ بالموقف الذي هو حياله إلماً خفيفاً، كان عمله الأدبي ذاتياً.

فظاهر الحياة المختلفة هي مادة الأدب لأنها مادة الاحساس والتفكير، وبدونها لا يتصور تفكير ولا شعور، ولا تكون النفس إلا خرواً تاماً ولا الفكر إلا فضاء مطلقاً؛ والنفس الانسانية هي العامل الفعال الذي يعكس صور مظاهر الحياة تلك، ويمسحها من الصفات ما يروق المرء حيناً ويطره ويحبه فيها، وما يسوؤه حيناً ويؤله ويغضه في بعض تلك المظاهر، والأديب مهما توفر على موضوعه الذي هو بصده، ومهما كان موضوعه ذلك بعيداً عن نفسه وعن محيطه وزمنه، ومهما حكم فيه الفكر السليم والرأى المنزه، لا يخلو من أن يكون معبراً في عمله الأدبي عن ذاته، مصدرأ عن طبيعته، وهي طبيعة يتفق فيها مع الآخرين إلى مدى، ويختلف عنهم في بعض نواحيها.

بل لا يعدو الحق من يقول إن الأديب لا يزيد مدى حياته على أن يعرض نفسه على قرائه، مهما تباينت موضوعاته وتعددت أشكال أدبه، فسواء راح مادحاً أو ذاماً أو واصفاً أو قاصاً، أو ملاحظاً لأحوال الناس أو متأملاً في ماضيهم ومستقبلهم، فهو لا يعدو محيول

نفسه وتجاريه وعواطفه؛ بل إن بعض كبار الأدباء إنما بلغوا أوج نجاحهم الأدبي في العمل الأدبي الذي يصف كل منهم فيه قصة حياته، أو أم تجربة من تجاريه، أو أزمة نفسية عبرت بها، كما قص لامرئيين قصة حبه في «رفائيل»، وكما وصف كل من شكوتيريان وأنانول فرانس نشأته في آثاره الأدبية، وكما وصف تشارلز دكنز طفولته في «دافيد كوبرفيلد»؛ وبلغ القصصيون ذروة نجاحهم في قصصهم التي كان أبطالها صورا من أنفسهم أو من بعض حالاتهم النفسية، كما كان جيته فاوست، وكما كان أناتول فرانس بعض أشخاص كل رواياته — وأناتول فرانس نفسه يقول إننا لا نكتب إلا نحن أنفسنا، ويزيد فيقول إننا لا نقرأ حين نقرأ إلا أنفسنا. ولا غرو فالمرء لا يدمن إلا قراءة الضرب الذي يعجبه من القول، ويصادف هوى في فؤاده، ولا يصطفي من الكتاب إلا من يشاكله نفساً، وهو حتى حين يقرأ موضوعاته الأنيمة من آثار أدبائه المختارين يصغ كل ما يقرأ بصيغة نفسه ويؤوله على حسب إدراكه وطبعه، ويستخلص منه ما قد لا يستخلصه غيره، وما لعل المنشئ نفسه لم يقصده، والناس إنما يقرأون الشاعر أو الكاتب وهو يتحدث عن نفسه لأنهم يرون في نفسه صورة من أنفسهم، وفي ذاته صدى من ذواتهم، فإذا ألفوه قد أغرب وباعد بين ما يصف وما يحسون بذره واستهجنوه، ولم يعنهم بما يصف — من أحوال ذاته التي لا يحسونها في ذواتهم، أكثر مما يعينهم من أحوال معيشته الخاصة ومطعمه وملبسه

والذاتي في أدب اللغة أسبق ظهوراً من الموضوعي: يبدأ الأدب في عهده الأول بتعبير الإنسان عن خواطره العاجلة وأحاسيسه السانحة وتجاريه الحاضرة، يرسل ذلك على سجيته وبديته قولاً مائتراً أو أياً تارة شاردة، لم يعد لها العدة ولا تكلف فيها غناء طويلاً، ويرقى الأدب رقياً كبيراً وما تزال الصبغة الذاتية هي السائدة فيه، وتظل له هذه الصبغة مادام قريباً من البداوة غير آخذ أهله بشيء من الثقافة أو مقيدين لأدابهم بالكتابة؛ فإذا ما انتفع الأدب بالثقافة والتدوين ظهر فيه الضرب الموضوعي، إذ تنسج أفكار الأدباء ويمتد أفق نظراتهم ويقصدون التأمل في شؤون الحياة قصداً، غير متغربين التجارب التي تسنح عرضاً، ويطلبون من مناحي الحياة ومذاهب التفكير الأبعد فالأبعد، فتزاحم الصفة الموضوعية الصفة الذاتية

فغزارة الضرب الموضوعي في الأدب من لوازم رقيه ووصوله إلى الطور الفني، يد أن العنصر الذائقي لا يحصى يبلوغ الأدب هذا الطور، بل يبقى ويزداد رقياً وحرارة وعمقا، ويظل صدقه وعمقه وحرارته خير مقياس لصدق الأدب ورقيه، ويفترن ضعفه وتلاشيه بضعف الأدب وفنور العاطفة فيه وتغلب اللفظ على الشعور الصحيح؛

فالقصة والترجمة والتأريخ والملحمة كلها ضروب موضوعية يتحدث فيها المنشىء عن غيره من رجال الحقيقة أو الخيال ، ومن أبناء الحاضر أو الماضي ، ويدرس حوادث لم يساهم فيها ولم يختص بها ، وإن تكن لذاته في كل ذلك آثار تقل أو تكثر ، والرمائل الاخوانية والمذكرات ، والتراجم الشخصية والاعترافات وما جرى مجراها ، كلها أشكال من الأدب ذاتية يخصصها الأديب لتحليل ذاته وعرض صور من حياته ، وإن خالط ذلك شتى النظرات الموضوعية ، أما المقالة فيتراوح حظها من كل من الضربين .

وكما تفرق أشكال الأدب وتتميز في هذا الصدد ، كذلك تفرق وتتميز موضوعاته : فالوصف والمدح والهجاء والحكمة أقرب إلى الضرب الموضوعي من الفخر والحاسة والنسيب والشكوى ، أما الرثاء فيجمع إلى وصف خلل المرثى وهو أمر موضوعي ، وصف مشاعر الرائي وهي أشياء ذاتية ؛ على أن موضوعات الأدب هذه قلما ترد في أثر الأديب خالصة مستقلاً ذاتياً عن موضوعها ، بل يتمازج الضربان كما أن الأشكال الأدبية كثيراً ما تختلط ، فيتصل بالآثر الأدبي الواحد الترجمة بالقصص مثلاً ، ويتمزج الوصف بالنسيب ، وتبدأ القصة أو القصيدة بوصف منظر وتنتهى بخواطر وجدانية ، ومن ثم تبرز الذاتية والموضوعية في أكثر الآثار الأدبية .

ومن التعسف تفضيل ضرب من الاثنين على الآخر : فللذاتي من آثار الأدب محاسنه ، وللوضوعي مزاياه ، كما أن الشعر لا يفضل النثر ولا الأخير يرجح الأول ، بل لكل فضائله ومواقفه ودواعيه ؛ فالعمل الأدبي الذي ترين عليه مسحة الذاتية يروع بحرارة وإخلاصه وصراحته ، ويشوق بكشفه عن نفس صاحبه وتحديد شخصيته ، كما تحدد خطوط المصور شكل الصورة وجوانبها ، ويروع بقدره صاحبه على التأمل في نفسه وتوضيح خلجاتها ، والضرب الموضوعي يسر إذ يعكس في صفحة الفن ما نشهد ونحس في عالم المشاهدة والخبرة ويروع بقدره الأديب المنشىء على الملاحظة والتقصي والتجرد من أهواء نفسه والتوفر على ما هو بصدده ، لكل من الضربين مكانته وروعه ما اتفقت له صفتان : الصدق والعمق .

وكل من الأدبيين العربي والانجليزى حافل بآثار الذاتية والموضوعية في مختلف نواحيه ، ترين هذه أو تلك على بعض آثاره أو تغلب على أدبائه ، أو تظهر في بعض عصوره ، أو تتجلى في أشكال منه وموضوعات دون أخرى ، يد أنه لاختلاف تاريخي الامتين واختلاف ظهورهما في عصر الحضارة والثقافة ، يحتمل الطور الذي كان الأدب فيه ذاتياً عهداً مهماً من عهود تاريخ الأدب العربي قبل

في عصور تدهور الأدب بسود الضرب الموضوعي ، وتتفق موضوعات بذاتها يصطلح الأدباء على طرقها على أساليب مخصوصة لا يعدلون عنها ، ويكشفون عواطفهم الذاتية ، فلا يكاد يتميز واحد منهم عن الآخر في السمات والميول ؛ فالضرب الموضوعي يظهر متأخراً عن الضرب الذاتي في الأدب ، ثم يبقى متخلفاً عنه عند اضمحلال الأدب ، يبقى على حال من الضعف والتكلف والابهام

ولما كان الضرب الذاتي من الأدب أسبق إلى الظهور في تاريخ الأدب ، كان مقترناً بالشعر الذي هو أسبق إلى الظهور من النثر الفني فالأدب في عهوده لا يكاد يزيد على أن يكون شعراً ذاتياً ، فإذا دخل الأدب طوره المنحضر الفني ظهر فيه النثر وظهر الضرب الموضوعي في الشعر والنثر معاً ، بيد أن الشعر يظل دائماً متعلقاً بالضرب الذاتي ، بينما يستأثر النثر منذ نشأته بالجانب الأكبر من الأدب الموضوعي ؛ فالشعر لما له من مزايا الموسيقى والخيال أقدر على التعبير عن وجدانيات ، والنثر لما له من مزايا الحب والدقة والتحرر من قيود الوزن والقافية أقدر على تتبع الوصف لموضوع الانشاء ، والانسحاب في شرح دقيقه وجليله ؛ فإذا جمع أديب بين الصناعتين رأته يتدفع اندفاعاً تلقائياً إلى النظم ، إذا حفزته ثورة نفسية متدفقة ، وينساق بداهة إلى النثر إذا أراد التأمل الهادئ . والتوسع في الشرح والاستقصاء ؛ على أن هذا ليس بمانع أن يحتوى النثر أحياناً على بدائع من آثار الضرب الذاتي ، وأن يشتمل الشعر على لطائف من آثار الضرب الموضوعي

ولما كان الشعر أشبه بالضرب الذاتي من الأدب ، والنثر أقرب إلى الموضوعي ، كان الشعراء بطبيعتهم أدباء ذاتيين أو أنانيين كما قد يلقبهم بعض المتكرين عليهم ، وكان الكتاب أدباء موضوعيين ، يتناولون من مجالات القول ما لا يمس أنفسهم وشخصياتهم إلا قليلاً ، بينما لا يكاد بعض الشعراء يخوض في غير شؤون نفسه ، من طرب وشجن وغضب ورضى وحب وبغض ، حتى تلوح دواوين بعضهم كأنها صخب مستمر مزعج ، أو بكاء طفل مدلل وضحكة يتتابعان بلا انقطاع ، والبكاء أظهرهما جلبة والسخط والنقمة والشكوى أبين أثراً ، فإذا فرغ الشاعر من صخبه وثورانه جاء الكاتب من بعده هادئاً وقوراً ، يصرف في شعره نظر الحكيم الخبير ، ويحكم على شعره وخلقه وحياته وفهمه للعالم حكم القاضي المنمكّن ، فلا يزال الشعراء يلوحون كأنهم فريق من المتهورين الانغرار ، ولا يزال النقاد يظهرون في مسرح الراشدين الأكبر منهم سناً وخبرة بالأمور .

ولا يقتصر التفريق على الشعر والنثر في هذا الصدد ، بل هناك أشكال من الأدب هي أصلح للذاتي وأخرى هي أوفق للموضوعي :

أن يظهر الضرب الموضوعي ويشيع في الأدب، على حين لم يتخلف في الأدب الانجليزي من ذلك العهد شيء ذو بال، وإنما يبدأ تاريخ الأدب الانجليزي الحديث من عهد اليزابث، والضربان الذاتي والموضوعي فرسا رهان في حبلته، بل كاد الضرب الموضوعي أن يستأثر بالصدارة في ذلك العصر.

ففي عهد الجاهلية وحقة من الاسلام كان الأدب العربي - إذا استثنى القرآن الكريم والحديث الشريف - أغلبه ذاتي الصبغة، وكان للشعر فيه المكانة العليا، وكان الشعراء دائبين يبدأون القول ويعيدونه فيما خالج أنفسهم من خواطر، أو من حياتهم من قريب من حوادث، فأمتلا قصيدهم بالحماسة والنسيب والمنافرة والمهاجاة والفخر والتمدح بكرم السجيا، فلما توطدت الحضارة وشاعت الثقافة اتسعت جوانب الشعر وتعددت مجالاته، وظهر بجانبه النثر الفني، وتناول كلاهما موضوعي الشؤون بجانب ذاتها، فكان من الفنون التي جدت في الشعر أو توسعت فيه الوصف المسهب والمدح المطنّب، وتناول النثر رسائل الأمراء، كما جال الجاحظ والبدیع وغيرهما في نواحي الحياة ومذاهب التفكير وأحوال الماضي وخصائص الأحياء وأخبار الأمم ووجوه النقد الأدبي، فنزرت في الأدب العربي منظومه ومشوره في هذا الطور آثار الذاتية والموضوعية. يتحدث المتنبي مثلاً عن عظمته وفتوته ومطامحه وأشجانه، فيجىء شعره ذاتياً صادقاً رائعاً، ويمدح سيف الدولة أو سواه ويصف مآثره ومواقفه فيميل إلى الموضوعية؛ والأرجح أن الموضوعية كانت أظهر في هذا العصر، لرواج ضربين من القول موضوعيين عج بها الأدب: عج الشعر بمدح الأمراء، وعج النثر برسائل الدواوين.

ذاتك هما الطوران الأولان من أطوار الأدب العربي من جهة الذاتية والموضوعية: الطور الأول هو عهد نشأة الأدب الذي كانت الذاتية فيه غالبية، والثاني طور نضج الأدب الذي فيه اجتمع الضربان؛ أما الطور الثالث فهو عهد اضمحلال الأدب تدريجاً، وهو طور تغلب الضرب الموضوعي وتلاشى الضرب الذاتي تدريجاً: جدد الأدب على موضوعات خاصة اصطفاها الأدباء، في مقدمتها المدح والهجاء - وعدوها وحدها مجال الأدب وشغل الأدب، وطرقوها على أساليب خاصة يتنازعهم في ممارستها عاملان الحرص على تقليد الأقدمين، والرغبة في إظهار البراعة بالتلاعب بالالفاظ والمعاني، أما المشاعر الذاتية الصادقة، والخصائص النفسية المميزة، فاخفت من الأدب، وحتى في شرح عواطفه كان أديب ذلك الطور مقلداً، لا بشرح عواطفه إلا على نحو خاص قد جرى

به العرف، وحض عليه القاد، وبذلك جاءت الآثار الذاتية نفسها موضوعية عامة مبهمه

ومن أحسن أمثلة الضرب الذاتي الصريح في الطور الأول قول غنتره:

فاذا ظلمت فانت ظلمي باسل مر مذاقته كطعم العلقم
وإذا شربت فانتى مستهلك مالي، وعرضي وافر لم يكلم
وإذا صحت فما أقصر عن ندى وكما علت شمائي وتكرمي
ومن أمثلة أشعار الطور الثاني التي يمتزج فيها الذاتي والموضوعي - قصيدة المتنبي التي يعاتب بها سيف الدولة، ومنها قوله: -
مالي أكنم حبا قد برى جدى وتدعى حب سيف الدولة الأمم
فوت العدو الذي يعمته ظفر في طيه أسف في طيه نعم
صحت في الفلوات الوحش منفردا حتى تعجب مني القور والأكم
ومن أمثلة أدب الطور الثالث الذي طفت فيه الموضوعات المأثورة وطمت الشخصية الذاتية قول القائل:

وقفت بأطلال الأجنة سائلا ودمعي يسقي ثم عهدا ومعهدا
ومن عجب أنى أروى ديارهم وحظي منها حين أسألهما الصدى
وكان للشعر المكانة الأولى في الأدب الانجليزي في العصر اليزابثي، وكان يتناول الضربين الذاتي والموضوعي من النظم، وتختص بالآخر - الروايات التمثيلية التي ازدهرت إذ ذاك إزدهارا عظيما، وتختص بالأول القصائد المرسلة طويلة أو قصيرة؛ وفي القرن الثامن عشر هبطت فاضمحت فيه النزعة الذاتية، وأصبح أكثره موضوعيا مبهما، واحتل مكانه النثر وشمل شتى النواحي الذاتية والموضوعية، ففي الأولى كتب كارلي وأديسون وستميل كثيراً من مقالاتهم، وفي الثانية كتب جيبون وبوزويل ورتشاردسون وديفو وآخرون لا يحصون كتبهم في التاريخ والترجمة والقصص والمغازات. فلما كانت النهضة الرومانسية عادت للشعر أفضليته، وحفل بشئ الآثار الذاتية والموضوعية، بين، ووصف الطبيعة وسرد الحرافات الشائقة، ووصف تأثر النفس بهذه وتلك، وتمجيد الجمال وشرح أطوار الحب، ولم يزل الشعر والنثر منذ ذلك العهد فرسى رهان، بطرقان شتى المناحي بين ذاتها وموضوعها - بيد أن الذاتية ما زالت منذ عهد شكسبير إلى العصر الحاضر تظفي على الموضوعية رويداً، وتستأثر شيئاً فشيئاً بالنفقات الأدبية وتقوز بأشكال أدبية جديدة. ففي عهد شكسبير كان الروائي يحرك روايته حول أشخاص تاريخيين أو خرافيين بعيدين عنه بعداً كبيراً وفي القرن الثامن عشر عهد النثر الذهبي كان الأدباء يكتبون القصص يضمنونها من طرف خفي صوراً من حياتهم وجوانب من أنفسهم، فيكتب سمولت الأفاقي قصة كونت فاووم المغامر، ويكتب جولد سميث

من مشاكلنا المعاصرة

سؤال...

للأستاذ علي الطنطاوي

كنت أسمع من أبي والأشياخ من أهلي أنه كان في بلدنا — فيما كان فيها من أوقاف كثيرة — وقف على المشتغلين بالعلم والمنقطعين إليه . يفتحون لهم بريعه المدارس الواسعة ، ويعدون لهم الغرف المفروشة ، ويهيئون لهم فيها المكتبات القيمة ، ويقيمون لهم الخدم ويقدمون إليهم كل ما يحتاجون إليه من طعام وشراب وحلية ومتاع ، ويفرغون قلوبهم من كل هم إلا هم الدرس والبحث ، فكان الناس يرغبون في العلم ، ويقبلون عليه ويبرزون فيه ..

... ثم ذهب ذلك كله بذهاب أهله . وخلف من بعدهم خلف أضعوا الأوقاف ، وأكلوا أموالها ، قهدمت هذه المدارس ، وأمس خرائب واطلالا . ثم سرقتها الناس فحولوها بيوتا ، وطمؤوا آثارها ...

فأعرض الناس عن العلم وزهدوا فيه ، فقلنا : لا بأس ، إنها قد تتحول تلك المدارس الى دور عجيبة ، وقد تصير أحيانا ملجأ كسالى ، ومأوى عاطلين ، وعندنا المدارس الجديدة ، تسير على منهج مقرر ، ونظام معروف ، وطريق واضح ، فما نحن إلا كمن أضع درهما ووجد دينارا . وأقبلنا على هذه المدارس ، إقبال العطاشى على المنهل الصافى . ومنينا أنفسنا بكل جليل وجميل ولكننا لم نلبث أن خرجنا منها . وواجهنا الحياة حتى علنا بأنها لم تقم بما كان يرجى منها ويجب عليها ... ووجدنا أننا لا نصلح في هذه الحياة إلا لشيء واحد ، هو (الوظيفة) ؛ أما العمل الحر ، والمغامرة في الحياة فنحن أبعد ما يكون امرؤ عنه ؛ ووجدنا سبيل الوظيفة مسدودا وكراستها مملوءة ؛ وكيف لا تكون كذلك وكل الناس يسعى إليها ويريد بها ؟ هل يكون أبناء الشعب كلهم موظفين ؟ فكنا واحداً من رجلين : اما الفنى الموسر

ابن القسيس قصة قس وبكفيلد التي ليست إلا حكاية عهد نشاته في أسرته ، ثم يكتب تشارلز دكنز في القرن الثالث قصة صباه في كتابه دافيد كوبرفيلد ؛ ثم تزداد الذاتية بروزا ويرفع الأدباء حجاب التخفى وينبذون الأسماء المستعارة ، فيكتبون قصص نشأتهم ومذكرات رجولتهم وينشرون رسائلهم وتراجهم الشخصية ، والأدب الانجليزى المعاصر حافل بآثار هذه الذاتية السافرة

وقد امتازت بالذاتية الواضحة ، أو الانانية الأدبية ، كثير من الأدباء الانجليز ، كانوا لا يملون التأمل في نفوسهم والتحدث عن ذواتهم صراحة أو تحت غشاء شفاف : فلتون يعرض لكوارثه وعماه ومبادئه السياسية والدينية والاجتماعية في ملاحه الثلاث ، وورد زورث يؤلف المطرولات الشعرية في تصوير صباه وخواطره من طفولته إلى كهولته ، ويرون ينظم القصيدة تلو القصيدة ويصور البطل تلو البطل ، ولا يزيد أن يتحدث عن نفسه وميوله وآرائه ، وشلى يسمى نفسه « اربيل » باسم إله إغريقى ، ويكتب عن نفسه تحت ذلك العنوان أشعارا ، وكل من هازلت ولام يصور تصويرا دقيقا أميناً ما يحس عند خروجه للرياضة على الأقدام أو حين سماعه التوافيس تتجاوب مؤذنة بآتهام العام أو نحو ذلك

ومن جهة أخرى نرى أدباء من أمثال جراى وكولردج ورسكن يستترون وراء حجاب من الوقار والتفكير الهادى الشامل ويتحدثون مصورين أو قاصين أو ناقدين ، عن غيرهم من رجال التاريخ والأساطير وأعلام الفن والأدب ، فأكثر آثار هؤلاء موضوعية ، وأكثر مؤلفات الأولين ذاتية ؛ كما كان من الأدباء من أخذوا من كلا الضريين بنصيب وافر ، ومن برزوا في مجال الشعر والنثر ، ومن أنهموا حياتهم الأدبية باصدار تراجمهم الشخصية ، ومن خلفوا في النقد آثارا تبارى آثارهم في النظم والانشاء ، أو تفوقها ، مثل دريدن وماكولى وماثيو وارنولد

وبعد بعض المغالين تزايدت هذه النزعة الذاتية في الأدب الانجليزى علامة ضعف وانحلال ، ولا شك أن غلبة أحد العنصرين الذاتى أو الموضوعى على الأدب من دلائل نقصه ، وإنما يكون رقيه مقترنا برقى العنصرين فيه معا . يدل ما فيه من آثار الذاتية على صدق الشعور وعمق التأمل وتميز الشخصيات ، ويدل ما فيه من آثار الموضوعية على شمول النظرة واتساع أفق التفكير وتناول الأدب لمختلف نواحي الحياة ؟

فخرى أوبر السعور

«صوب» جاء في العدد الماضى من ٤٠٩ س ١٥ : وأعدوا لهم ما استطعتم من عدة ، والصواب من قوة .